Archive of SID

# حبُّ النّيل فى أصداء النيل

مهدى ممتحن*
حسين محمديان**

**الملخص**

ما زالت العرب تذكر النيل وما يزال فى أشعارهم قديماً وحديثاً فلايكاد يخلو منه ديوان شعر من دواوين شعراء مصر والسودان. وفتن عقول الشعراء فنشدوا فيه روائع شعرية، تتسم برقة الديباجة وسلامة الأسلوب وجزالة اللفظ وشرف المعنى. فمنهم الشعراء من أحبوا النيل حبا جماً كالشاعر «عبدالله الطيب المجذوب» الذى سمى ديوانه «أصداء النيل».

النيل عنده يخرج من دائرة الحس والمادة إلى دائرة المعنى، فهو رمز لقوة الإرادة وإنّ مجد النيل هو مجد الوطن، ومن ثم التغنى بحب النيل هو غناء بحب النيل، إذ يجد الشاعر عنده الطمأنينة والسكينة بسبب علاقة حميمة تربط بينهما منذ الطفولة الباكرة، وإنّ الصلة بينهما هى صلة «الحب الفطرى» ومن ثَمَّ كان الحنين إلى النيل حنيناً إلى الإنسان والزمان والمكان، فتعلقت روحه بالنيل وأهله، فلا يكاد يستطيع مفارقته. لذلک يتحدث عن النيل فى ديوانه مرّات؛ بل وسمى تسعاً من قصائده ومقطوعاته الشعرية بأسماء النيل.

**الكلمات الدليلية:** النيل، أصداء النيل، عبدالله الطيب، الحنين، حب النيل.



*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فى جيرفت ـ أستاذ مشارک.
**. خريج جامعة تربيت معلم فى سبزوار.

Dr.momtahen@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٨٩/٣/١هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٨٩/١٠/١٩هـ. ش

www.SID.ir

Archive of SID


## المقدمة

يهدف هذا البحث إلى إعطاء صورة واضحة وخليفة موجزة عن حقيقة النيل وطبيعته وأثره فى حياة الشاعر عبدالله الطيب، وتأثره به ومكانته فى نفسه عبر «أصداء النيل» فقد كان النيل وما يزال ملهم الأدباء والفنانين، ومبعث الشعر والأدب ومبرز معانى العزة والكرامة والشوق والحنين ومبادئ الحرية ورفض الخضوع على مر العصور، والأزمان. فالنيل هوالحب الأزلى، وهو الماضى، والحاضر، والمستقبل، والرجاء، والوفاء، والشموخ، والعزة، والوقار، والعظمة عند كثير من الشعراء والأدباء.

الشعر من أقدم آليات التعبير الفنى وأقواها التفاتا إلى الطبيعة، واهتماما بتصوير ظاهرها وسحرها وروعتها. كما ينفعل الإنسان بالمواقف المتعلقة بحياة الفرد أو الجماعة كذلک تجذبه الظواهر الطبيعية، تثير فى نفسه مشاعر شتى. النيل هو أساس لهذه الطبيعة، فهو سفر وطنى مقدس تقرأ فى صفاته عقول الناشئة ماضى أجدادها التليد، وتستلهم من عمقه وسكوته ولطفه ووقاره القوة والحكمة. ومن ثم أخذت ألسنة الشعراء ترد منهله، وتتهافت عليه كما يتهافت الفراش على الرحيق تعبّ منه تلک المعانى السامية وتنهل من فيضه الزاخر، وتستوحى من ماضيه تاريخ أمتها المشرقة فلم يخل ديوان من دواوين أبناء النيل من ذكره، والإشارة إليه، والتغنى بفضله العميم، وخيره الدفاق. (طالبى، ١٣٧٦ش: ١٢٣)

قد أثر هؤلاء الشعراء الساحة الأدبية وغامته الشعرية بروائع لاتحصى ولايسع المجال للوقوف عندها جمعاء، ولا للوقوف عند الشعراء أجمعين. بل ونكتفى بلمحة عابرة من قصائد «عبدالله الطيب المجذوب» فى ديوانه «أصداء النيل».

## النيل لغة

قيل أنه كان معروفا باسم «حابى» (إله النهر) وربما كان اليونانيون هم أول من استخدم اسم نيلوس Neilos. كما قيل إن النيل مأخوذ من اللغة الفارسية، وهى «نيل» أى الأزرق وهناک رأى آخر وهو: اسم النيل منحدر من لفظ (أيال) القبطى بعد إضافة


www.SID.ir

Archive of SID

المقطع (نى) كأداة تعريف للجمع فى اللغة القبطية وقد أضاف اليونانيون إليها المقطع (OS) لتصبح نيالوس، ثم حذفت بعد ذلک فى استخدام الوس. وما من شک أن هذا الرأى الأخير هو الأقرب إلى الصواب. (الشامى، ١٩١٧م: ١٧)

يقول ابن منظور فى لسان العرب إن الأصمعى قال: «نالة الحرم ساحتها وباحتها النيل نهر مصر حماها الله وصانها» وفى الصحاح «فيض مصر، ونيل نهر بالكوفة» وحكى الأزهرى وقال: «رأيت فى سواد الكوفة قرية يقال لها النيل...» (ابن منظور، ج١٤، مادة: نيل) أما الزبيدى فيقول فى تاج العروس:

فقــد رميت بِداء لَسْــتَ غَاسِــله  مــا جاوَزَ النِّيل يومــاً أهل أبْليلا

قرية بالكوفة، قال النعمان بن المنذر يجيب الربيع بن زياد العبسى:

والنيل قرية بـ«يزد» على مرحلتين منها: النيل نبات «العظلم»، وأيضاً نبات آخر ذو ساق صلب وورق صغار. أما النيل بالكسر فهو السحاب. (الزبيدى، ١٣٠٦ق، ج٨، مادة: نيل)

## حياة الشاعر

ولد فى السودان غربى «الدامر» فى سنة ١٩٢١م، تعلم بمدرسة «كسلا» و«الدامر»[١] و«بربر» وكلية غوردن بالخرطوم، والمدارس العليا ومعهد التربية ببخت[٢] الرضا وجامعة لندن بكلية التربية، ومعهد الدراسات الشرقية والإفريقية، نال الدكتوراه من جامعة لندن

١. دَمر : أهلک، دَمّر: حطّم، دَمَر (عامية سودانية) مكان الإقامة فى أشهر الصيف. والدامر مدينة، قرب مدينة عطبرة فى السودان . دميرة: فيضان النيل والكلمة مستعلمة فى عامية مصر. وفى مصر قريتان بهذا الاسم من إحداهما الدّميرى صاحب «حياة الحيوان» والكلمة قبطية فيما ذكر «محرم كمال» ومعناها السيل أوفيضان النيل بزيادة أداة التعريف للمؤنث بأوّلها وأصلها ميرى أوميرا وهى ترجع إلى أصل هيروغلوفى هو(مر) بمعنى بحر أومياه أوبحيرة. (عون الشريف، ١٩٨٥ م، ص ٤٠١ ٤٠٢)

٢. بَخْت : حظ وهى فارسية الأصل، قال السيوطى فى المزهر (٣٠٩/١) « قال البغدادى فى الفصيح قول العامة له بخت مكان حظ مولد ليس من كلام العرب». (عون الشريف، ١٩٨٥ م، ص ٨١)


www.SID.ir

Archive of SID


SOAS سنة ١٩٥٠م، عمل بالتدريس بأم الدُرمان[١] الأهلية وكلية غوردن وبخت الرضا وكلية الخرطوم الجامعية وجامعة الخرطوم وغيرها من الجامعات.

تولى عمادة كلية الآداب بجامعة الخرطوم (١٩٦١ – ١٩٧٤م) كان مديراً لجامعة الخرطوم وأول مدير بجامعة جوبا، عمل أستاذا للعربية بالمغرب فى كلية الآداب بجامعة محمد بن عبدالله بفاس. له عدة مؤلفات منها «المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها» و«الأحاجى السودانية» و«نافذ القطار» و... له عدة دواوين شعرية مثل «أصداء النيل» و«يانات رامة» و«أغانى الأصيل» و«زواج السمر».

عضو عامل بمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ ١٩٦١م، وعين رئيسا لمجمع اللغة العربية بجمهورية السودان فى ١٩٩٠م وفى بدء تأسيسه، منح الدكتوراه الفخرى فى اللغة العربية بجمهورية السودان فى ١٩٩٠م، وفى بدء تأسيسه، منح الدكتوراه الفخرى من جامعة الخرطوم وجامعة بايير وبكنو بنيجريا ومن جامعة الجزيرة بالسودان. شارك فى عدة مؤتمرات فى السودان وخارجها وله مساهمة فى الصحافة والإذاعة والتلفزيون. فسر القرآن كله من إذاعة أُم دُرمان ونشر تفسير جزء عم وتفسير جزء تبارك. (الطيب، ١٩٩١م، ج٣: ١٨٤)



## أصداء النّيل والنّيل

يحتوى ديوان عبدالله الطيب أصداء النيل على ١٦٠ قصيدة ومقطوعة وهزجا ومسمطا وقصة، وتدور موضوعاتها حول شعر الحب والجمال والوصف والمدح والرثاء والموضوعات القومية وفى ديوانه قصائد نظمها فى الطبيعة وحبه لمظاهر الطبيعة، يبدو بكل وضوح وكانت الطبيعة فى شعره مجالاً لتأملاته الشعرية.

يتجلى حب عبدالله الطيب لمظاهر الطبيعة فى مادة الخيال التى يعبر بها عن خلجات نفسه ومعانيه. فهو كثيراً ما يتخذ من الأزهار والأنهار والغابات والصحارى والألحان

١. مدينة غرب الخرطوم.



www.SID.ir

Archive of SID

والأنوار وغير ذلک من محاسن الطبيعة مادة لخياله. فعشق النيل لأنه صوت السودان، فيلوذ الشاعر بالنيل، ذلک النيل الذى كم عشقه، وتدله فى حبه فيلتجىء إليه، ويكشف له ما يختلج فى صدره ويسمى ديوانه «أصداء النيل» ويكثر من ترديد هذه الكلمة النيل، فى شعره.

كما سمى تسعاً من قصائده ومقطوعاته فى «أصداء النِّيل» بهذه العناوين: ذكرى النيل، ماء النيل، حبذا النيل، النيل، أوز النيل، إلى النيل، حنين إلى النيل، روض النيل، صورة أخرى لروض النيل. كما يتكلم عن النيل فى القصائد التالية:

الصابر، الربيع، الشتاء، زنجية جنوبية، ألاحبذا نهر، رنا قلبى، إنجيلک شعر الثورة المصرية، ذكرى، رسم الحادثات، ندم الشباب، البدر فى مانشستر، السدود، المركب النهرى، النيم، بخت الرضا، النخلة، يا سدرة بالتل، سفر الصداقة، خواطر مفيدة، أمس زرنا أم الدجاج، الدب والدولار، بدامر الصدق، الربع المحيل، إلى الخرطوم، شكوى وعزاء، يا جارة البين غربة وذكرى، الوطن الضائع، وداع الخرطوم، هموم وفلسطين، ذكرى حافظ، صخر أسوان.

## حبّ النّيل

إن التعبير عن حب النيل والتعلق به قديتخذ أسلوب الصراحة والوضوح بالتعبير المباشر بلفظ (الحب) وذلک تأكيد معنى المحبة، وغرسه فى النفوس، والفخر بترديده، والاعتزاز بالتغنى به؛ ولذلک نجد الشعراء يرددونه ويكررونه فى أكثر من موضع (أحب النيل ذا التيار...)، (أحب النيل زمجر...)، (أحب النيل حين صفا... )، (يا حبَّذا النيل إذ رف الأصيل...)، (يا حبَّذا النيل أنى كان منسربا...)، وحبَّذا وقفة النيل...)، (وحبَّذا شطآه والنخيل...).

والمتصفح لأصداء النيل، يرى فى النظرة الأولى مدى تعلق عبدالله الطيب وحبه بالنيل؛ وفى رأيى إن الشعر جدير بالنظر والتقدير فى ديوانه إنما يتجه إلى التغنى بنغمات الحب فى مظاهره المختلفة خاصاً فى الطبيعة. تطور حب عبدالله الطيب من حب ضيق


www.SID.ir

Archive of SID


إلى حب أفسح، وكان يحب صوراً أخرى من الجمال ووصف النيل وأعجب به عندما أنشد قصيدته «إلى الخرطوم» ومطلعها هى:

إلــى الخُرطُوم من بعــد إغتِرَابِ  وبعــد بِلَى الشَــهِى من الشــباب

(الطيب، ١٩٩٢م: ١٩٩)

فالنيل دار له هيبة النسک ووقاره، تجد النفس عندها المتعة الروحية وتسبح فى جماله وحسنه، تعشقه وتحبه فيقول الشاعر فى القصيدة نفسها:

أحِــبّ النيلَ حِيــنَ صَفَا وشَــعَّتْ  تَهاوِيــلُ الأَصيــلِ عَلَــى الرِّوَابِى
هُبُّ النِّيلَ بِه الرِيحُ الشَمَالِ عَلَى شِرَاع  كَسَــالِفةِ الأَوَزةِ ذِى انسِــياب
وَلَــولاَ النيــلُ والذَكــرى وصبرِى  وأنّــى لِلْمَــكاره ذو غِــلاَب
أحــبُّ النيــلَ ذَا التّيــارِ يطفُــو  ويلطُــمُ جَانِبيــهِ بِالعِبَــاب
أحــبُّ النيــلَ زَمجَــرَ ثُــمَّ لَجَّــت  سَــوَاقِيه الشَّــجِيةِ فــى انتحَــاب
سَــمِعتُ بكاءَهــا والعُمــرُ غَــضٌّ  يعَللنــى بآمــال عِــذاب
وعَزَّائــى تَنَهُدُّهَــا مُطيفَــا  بِــهِ سَــجعُ القمَــارى الطّــراب

(الطيب، ١٩٩٢م: ٢٠٠)

إنه النِّيل وقد خلبت مناظره الجذابة البهية، لبَّ الشاعر وملكت عليه أحاسيسه وهو يتأمله وقت الأصيل، وريح الشمال تداعب موجه ودفاعه، حيثما تتهادى فوقه الزوارق الشراعية وهو يموج كريش الأوزة نعمة وبطئاً، إنه النِّيل تحن إليه النفوس لتجد فيه المسرة والجمال الفطرى. (الطيب، ١٩٩٢م: ٢٠١)

إنها صورة شعرية تنبض بالحياة والحركة مفعمة بالحب الخالص للنيل الخالد، وهى غناء صداح بجماله، ذلک الجمال الذى تعشّقته النفس منذ رقة أناملها، وهى تطرب لسماع أصوات سواقيه الشجية وصدح قماريه حيث أزفلة من الفتيات الحسناوات فى أثوابهن الغبراء قددلفن يحتطبن من شاطئيه فى طمأنينة وأمان، يتمتعن بحسنه وجماله فهو كَم جميل رائع عند الأصيل:


www.SID.ir

Archive of SID

يــا حَبّذَا النّيلُ إذا رَفَّ الأصيلُ وإذا مَاء السَّوَاقی عَلَی الرَّوضَات سَكَّاب
وَفِتيــةٌ قَــد تَلَوا يــسَ فِی سَــحَرِ وَغَيرُهُم فِی حَشَــايا اللَّيلِ مَا ثابوا

(الطيب، ١٩٩٢م: ١٨٢)

فالقلب مولع بحب النيل ويتشوق للتمتع بحسنه الجذّاب وإحساس الشاعر هنا إحساس صادق تحت ظلّ الحنين والغربة، كما تثير الحب والحماس الروحی فی النفوس واصفاً فی تعابير رقيقه ومعان دقيقة حنانه واشتياقه برؤية النيل فی الصيف، فيقول فی مقطوعته «إلی النيل» حيث ينشد:

أُحِبُّ النيــلَ فی الصَّيفِ وقَــدْ زَمْجَــرَ واهتاجــا
ومَشْــتَی لَنْــدنَ البــاردَ والمَوْقِــدَ وهَّاجــا
ولَيــلَ السَّــمَرِ الآن سِ لا تَرْهُــبُ إحراجــا
ومَــسَّ الأَذْمُــلِ الغــی مــن إشــراقها تاجــا
وبَــشَّ الزهْــرُ يحكيهنَّ إذْ أَقْبَلْــنَ أَفواجــا
همی دَمْــعُ امرئٌ القيس علی الأطــلال إذ عاجا

(الطيب، ١٩٩٢م: ٩٢)

أولع عبدالله الطيب بالصور المشرقة فی شعره فعشق النّيل عشق النور والإشراق. يصف الشاعر النيل فی مقطوعته «ألا حَبَذا النهر» إذ يصف فيها الظواهر الطبيعية التی تنبض بالحياة، ويصور لنا التصاوير الحية كلوحة قلمية رائعة، ولذلک لاينقلها نقلا محضا، بل ينقل من أحساسيسه وشعوره، ولاتدخل فی باب الغموض فی وصفه ويقف بجانب النِّيل ويتغنی بسحره لكی يزيد سحراً علی سحر، فيقول:

ألا حبَّــذا نَهْــرٌ تــكاد غِياضُــه لِمَا أشْــرَفُتْ من جانبيــهُ تَلاحُم
تَوَثَّــبُ فيــه كُلُّ ذاتِ مســافَةٍ من الحســن فيهــا أنْجُــدٌ وتهائم
تراهُــنَّ فيه ســابحاتٍ وقــد حَنَا عليهــنَّ صَــدْرٌ منــه رَّيــانُ رائم
وهيهــات منــک النيــلُ طامــحٌ يجيشُ، به التمساحُ أسْحَمُ ساهم



www.SID.ir

Archive of SID


وســمراءُ عند النيلُ جاذَبَ خَطْوُها تكسُّــرُها فــى مَشْــيها والنســائم

(الطيب، ١٩٩٢م: ٥٤ و٥٥)

فيقول فى مقطوعة أخرى باسم «النيل» حيث ينشد:

ألا يــا حَبَّــذا النيلُ ال خصِيبُ العيش من نهر

وذاک السُّــنْبُلُ الــراع ش فيــه نَفَــسُ الفجــر

ونَطْــوِى شُــقَّةَ مَسُــوقين ولا نــدرى

(الطيب، ١٩٩٢م: ٩٠)

يستمر عبدالله الطيب فى تصوير معالم تلک الحياة الوادعة على شاطئ النيل، ويصور جمال طبيعته، وقد انسكبت مياه السواقى دفاقة فى الرياض الغناء، ثم يدلف لتصوير الحياة الروحية لساكنيه، فهؤلاء صبية يتلون آى الذكر الحكيم بالأسحار، وأولئک فارقت جنوبهم المضاجع فى حنايا الليل يتجهدون، وهم يعيشون فى كنف النِّيل، ويتمتعون بجماله الأخاذ:

يا حَبّــذَا النيل أنَّى كَانَ مُنسَــربا وحَبَّــذا ثَبــجٌ منــهُ وكُثبَــان[1]

وحَبَّذَا شَــاطِئاهِ والنَّخِيــلُ ونيرَانُ القُــرَى ومَعِيــزُ الحــى والضَّــانُ

وحبَّــذا وَقفَــهٌ بالنيــل إذ دَلكَت بَعــدَ المَقِيل ورام الــرى رُعيان[2]

الــوارداتُ ضِفــافِ النيــلِ أزفِلَةً يرحَضْنَ ثُمَّ مــا يرحَضْنَ خُلقَان[3]

والنيلُ يهجِسُ فى أعمَاقِ أنفُســنَا مُذ نَحنُ فى سَبَحاتِ المَهدِ ولْدَان

(الطيب، ١٩٩٢م: ٢٤٢ و٢٤٣)

فتشب النفوس وهى تحسن فى أعماقها بهذه المعانى السامية التى تتوطد مع مر الزمان وترسخ فى القلوب التى تعلقت بحب النيل وتشربت منه الجلال والمهابة والاعتزاز بالذات

١. ثبج النهر: أعالى موجه هنا.

٢. دلكت: أى الشمس وذلک يكون قرب العصر.

٣. يرخصن: يغسلن . والرخص: غسل فيه ضرب وكذلک يكون الغسل عند شاطىء النيل خلقان: أى ثياب بالية. الأزفلة : الجماعة.



www.SID.ir

Archive of SID

منذ سبحات المهد. وقد أجاد الشاعر فی إبراز هذا المعنی وتصويره، فقوله هذا هو تعبير يجمع بين عاطفتی (الحب والبراءة) فالهجس من الأعماق وبث اللواعج والهواجس هی مزية من مزايا العشاق والمحبين الذين أضناهم الجوى، وقرح أكبادهم الهوى، وناوشتهم لواعج الوجد والحب. وما همسات النفس وهواجسها إلاَّ صدى لذلک، وإفصاح جهير بمكنوناتها، وبما يعتلج فيها، فالنيل يهجس فی أعماق النفوس وهو يفيض عليها تحنانا ومحبة كهوى العشاق والوالهين.

أما قوله (فی سبحات المهد والدان)، فهو إفصاح عن عاطفة البراءة والعفاف الفطری، لأن الطفولة تعنی (التجريد) إلاّ من الفطرة الأولی التی لم يشبها شائب ولم يدنسها دنس، فالطفولة هی رمز النقاء وصفاء السريرة، (فولدان المهد) براءتهم هی قبس من نور الإله، يشع صفاء وإشراقا. ولما كانت عاطفة الحب تتأرجح بين التوهج والخمود، والتوقد والذبول، فإنَّها ترمز إلی الحياة البشرية التی لا تقف علی حال ولا تستقر علی نهج واحد، بل تتقلب توهجا وخمودا، يسرا وعسرا، فعاطفة الحب هی رمز لها، أما براءة الطفولة، فهی رمز الفطرة الأولی، تلک الفطرة السوية النقية الظاهرة. فما تتغنی به النفوس، إذا ما هو إلا صدی لهواجس النيل فی أعماقها، وما الحنين إليه وحبّه إلا ترجمان ذاتی لذلک التلاقی البعيد منذ سبحات المهد. (التنی، ۱۹۸۸م: ۱۱۱ و۱۱۲)

أوّل ما يلفت النظر فی قصيدته «ذكری النيل» حنين الشاعر للنيل، وهو بلندن فيقول:

بلندن ما لی من أنيسٍ ولا مال ... وبالنيل أمسَی عاذرِی وعُذّالی
ذكرتُ التقاءَ الأَرزَقَينِ[1] كما دنا ... أخو غَزَلٍ من خذرِ عَذرَاءَ مكسال
ينَازِعُهـا كيمـا تَجُـودَ وَينْثَنی ... وقَد كَادَ، مَحبُوراً مُؤانِسَ آمال
إذا الأَبيـضُ الرَّخَّارُ هاج عُبَابه ... له زَجَلٌ من بين جال إلی جال
ترافقه مـن فوقه قَـزَعُ الطَّخا ... فَتَحسـبُهُنَّ الطّيرَ تهفو لأوشال

(الطيب، ۱۹۹۲م: ۵۰)

۱. الأمن بالتحريک كالأمن والمراد هنا: احرزنی موضع أمن منه لايناله العداة.


www.SID.ir

Archive of SID


إنّها صرخات مغترب حرقها النوى، يحن فيها للنِّيل وقد اسودت فى مقلتيه الحياة فى ديار الغربة من ألم البين والفراق يهتف ملء فيه، يأمل الإياب والرجوع لتلك الروابى وأولئك الرفاق وذلك الحبيب. فذكر النيل مرة أخرى فى مقطوعته «ماء النيل» فينشد:

يـا ليـت أنَّ النيل عنـدى ماؤه ... فأجعَلَـهُ وهنْـاً مـزاج مدامـى
هنـاك تَحَسَّـيتُ الصِّبـا وعقيبَهُ ... وإن كان شاب الحَسوَ جَرعُ سِمَام
وآمُـل سُـؤرَ العَيـشِ ثُـمَّ وأنَهُ ... يحَـمَّ بِـهِ إمَّـا هلكـتُ حمامى

(الطيب، ١٩٩٢م: ٥٠)

فبلاده بعيدة المنال عن يديه، ويفصل بينهما أرض وماء فلا سبيل إلى الوصال، ولكنه لا ينفك يحن إليها ويتحرق شوقا وحبا لرؤيتها ويتمنى أن يدنو ماء النيل منه ليرتشف منه رشفات، علها تهدئ من شدة وجده لدياره ووطنه فإن الأيام سوف تسعد بعودته، وتهنأ له الحياة عند النِّيل، بين حبيبه ورفاقه حينما تلامس الطمأنينة شغاف قلبه، ويحس لحظتها براحة البال والضمير، فالنيل عند الشاعر أصبح محط سعادته وهنائه فهو جدير بأن يفد، وأن تَكِنّ النفس له كل آيات المودة والاحترام.

يحن لبلاده ويتشوق شوقاً لماء النيل والنيل منه بعيد، وقد عظم وجده واشتد حبه لواديه، فأصبح لايلوى على شىء إلاّ رؤياه والرجوع إليه، فهو رجوع الذات إلى طينتها الأولى، التى تعلمت منها الحياة والسعادة فينشد:

شَوقَاً إلى النيل ذِى البَشَاشَةِ كَم ... سَـعِدتُ فِـى رِيفِـه ومُدُنِـهِ
وكَـم تَحَسَـيتُ مِـن سُـلافَتِه ... مكـرم العَـرضِ غَيـر مُمتَهنـه
لـولا المقاديـرُ كانِ أحرَزنـى ... مـا لاينَـال العُـدَاةُ فـى أمنِه[1]
ولـم أقَـض الأيـام مُدْجَنَـةً ... فـى بَلَدٍ قَـد سَـئِمتُ من دجنه

(الطيب، ١٩٩٢م: ٢١٣)

فالنيل هو كنانة الصبابات والأشواق التى قد كتمها الشاعر المحب عن الناس وحجبها

١. الأمن بالتحريک كالأمن والمراد هنا: احرزنى موضع أمن منه لاينالة العداة.


www.SID.ir

Archive of SID

عنهم، إلا ما اعتراه من آهات وحزن، وتباريح الهوى، وتلک الشکوی التی يبثها فی الليل الدجوج للرجوج إلی الرحمن بأبيات شعر حرار، تعبيراً عن حرارة الأشواق واللواعج. فالنيل وحده هو الذی تجد النفس عنده العزاء والسلو.

ولَيسَ مَسِيری فِی البِلادِ بِمُبعِدی ... عَن النِّيلِ إنَّ النِّيلَ فِيه دِياری
وفِيه الصَّبَاباتُ الّتی کَتَمْتُهَا ... عَنَ النَّاسِ إلا آهَتی وجُوُاری
وشَکوَای لِلرّحمَن فِی حَلَک الدُّجَی ... بأبياتِ شِعرِ يعتَلِجنَ حَرَار

(بانات رامة، لاتا: ۹۹)

فهو عزاء للنفس منذ ريعان نشأتها الأولی وقد أحبته منذ طفولتها الباکرة، فهو سلواها وملاذها إن تکالب عليها اليأس، وتنازعتها النوازع.

عَزَاء النَّفسِ أنتَ إذا تَغَشی ... رُبَا الأمَالِ يأسٌ کالضَّبَاب
حَبَيتُکَ إذ نَبَاتُ العُمرِ غَضٌّ ... ووَردُ الحُبِّ أحمر کالشِهاب

(بانات رامة، لاتا: ۱۰۵)

کان النيل رمزا من رموز الشوق والحنين، إذ فيه الدار والمأوی والمنزل والمربع، وفيه ذکريات حبيبة إلی النفس ترجع صدی أيام سعد، تهيج الوجدان وتؤجج العواطف فتحن إلی تلک الديار وتلک الأيام الخوالی. ولما کان: «أول رموز الشوق والحنين هو المأوی، والدار والمنزل أوضح ما يدل علی المأوی، ثم المرأة فرع من هذا المعنی إذ هی کانت المأوی الأول حين کانت أما، ثم هی المأوی الثانی حين تکون الخدن والزوجة والخلة والصاحبة، والعرب تکنی بالبيت عن المرأة.» (الطيب، ۱۹۹۱م، ج۳: ۱۴۱) فالنيل هو أيضا رمز من رموز الشوق والحنين ففيه المنزل والدار. فينشد فی مقطوعته «حَبّذا النيل»:

حبَّذا النيل مَنزلاً ونخيلُ ... النَّيلِ والليلُ مُقمرا والنُّجوم
ورِمالٌ کأنَّهُنَّ إضِی ... دارجٌ موهناً بِهنَّ النَّسيم
ورباعٌ يشَادُ فيهن بالذک ... ر وتتلی يس أوحمُ



www.SID.ir

Archive of SID


وقبــورٌ ثَوينَ فــی ذلک القَفـ ـر ســقتهنَّ بالذِّهاب الغیوم[1]
فَــرَّق الدَّهــر بینهُــنَّ وعزَّی نَفسَــه بعــد عهدهــنَّ الیتیم

(الطیب، ۱۹۹۲م: ۷۴)

إنّ الاغتراب عن الوطن، والبعد عن الأهل والدیار وذوی القربی، وفراق الأحبة، یؤجج العواطف ویلهب الشعور المغتربة الذی طوَّحت به أیدی النوی، وهو یحس بالوحدة، وألم الفراق وعذابات البین، فلا یجد بدا من اللجوء إلی ذکریاته السالفة، یجد فیها الأنس والترویح ویلتمس عندها الطمأنینة والسلوی وهو یقاسی آلام الغربة وجراحاتها فیقول فی قصیدته، روض النیل:

أشاقَ قَلبَکَ رَوضُ النَّیل ترمقه ودُونَ ذلــک آمــاد بعیــدات
بَحرٌ خِضَمّ تضِلُّ الســاریات به وَرَءَاهُ مصــر والبیــد التنوفات
أو تَرکَبُ اللُّوحُ تمطو ذات أجنحة بک الفضــاءَ لها بالجــو أَزَّات
ألا تری الکَوْنَ قد أبدی مفاتِنَه وَرَفَّ الــرَّوض آفــاق نضیرات
تری الرُّبا لاح إبریزُ الشعاع بها ودُونهــا وَهَــداتٌ مدلهمــات
والغانیــاتُ بأثوابٍ تزرکشــها تزینهــنَّ شُــفُوفٌ عبقریــات
یخفِقن کالزَّهَــر البَری فی مَرَحٍ أَو هُنَّ فی مَوجِهِ الزاهی فراشات

(الطیب، ۱۹۹۲م: ۱۷۹)

فدون المغترب ووطنه بحار عراض تتیه فیها السفن، وصحاری شاسعات، فأنّی یتسنی له رؤیة النیل ورِیاضة الغناء، وقد أرقه الحنین إلی الوطن والأهل. فذکری الوطن والحنین إلیه، قد ملکت من المغترب فؤاده واستحوذت علی قلبه وجنانه، وهو یتمنی أن یرَ الوطن ویلثم ثراه، کنایة عن شدة الشوق لوطنه الذی تفصل بینه وبین المغترب الفجاج والبحار. فیقول فی قصیدته حنین إلی النیل:

أیا طاب وِردُ النیل إذ هاج هادِراً وجَاشَ علی الآفاقِ باللُّجَجِ الحمر

۱. الذهاب بکسر الذال جمع ذهبة بکسرها وهی الدفعة من المطر.


www.SID.ir

Archive of SID

على شــاطِئيهِ النَّخلُ والَّيلُ شاملٌ ومن فَوقِهِ الخضَــراءُ تُزهر بالبدر
يذكِّرُنــى قُمريــهُ مُتَرَنِّمــاً بُلَيبــلُ روضٍ صادحٌ غلس الفَجر
تَرَنَّمَ حتــى رَنَّ فى القلــب لَحْنُهُ وحتى دموعُ الصب من طَرَبٍ تجرى
وخَيــل للعَينَيــنِ سُــجَّعُ ضالَــةٍ تَجَمَّعــنَ من وُرقٍ عليها ومن كُدر
وهيهــات منــى بالجَريــرَةِ نُوَّح على الطَّلحَ يملأنَ المسامع بالشعر...
فيــا لَيــتَ أنَّ النيلَ يدنُــو فماؤهُ أحَــبُّ إلينَــا مــن مُعَتَّقــةٍ بِكــر
ومن كَاعِبٍ حَســناءَ لَــذٍّ حديثُها تَفَــاوَحُ مــن أثوابهــا بَنَّــةُ العِطر[1]
فمــن مُبلِــغٌ قومى الســلامَ تَحِيةً فَقَلبِــى لا ينفَكُّ مِنهــم على ذُكر

(الطيب، ١٩٩٢م: ١٧٧ و١٧٨)

فماء النيل أحب إلى نفسه، وأطيب من كل اللذائذ والمغريات التى وجدها فى ديار المهجر، وذلک لأن شوقه لوادى النيل لايبلى وحبه باق فى الأعماق، وحنينه لقومه وعشيرته لايبدده الزمان، ولاينقصه الدهر فهو حب خالد، فالحنين إلى النيل والتشوق إليه، هو وفاء له وبر لما أسداه للأهل والعشيرة من نفع وعيش رغد، فالقلوب تكنّ له الولاء والإخلاص رغم البعد والاغتراب. فأرض النيل هى الثرى والمربع الذى شهد الذكريات الحالمة وأحاديث الشوق الفائتة والتى تولع النفس بترديدها وحكايتها لتجد فيها العزاء والسلوى، ولتجد فى روايتها تنفيسا لهواجس النفوس ولوعتها.

فللشاعر عند ضفاف النيل ذكريات هوى، وصبابات حب قد شهدها النيل فى سالف الزمان، أيام كان الشاعر يتدله فى حب لميس التى كانت تميد مهفهفة الأطراف بين دوحات النيل فهو يحن لتلک الأيام التى تعيش ذكراها فى النفس حية جياشة، وإن بعد عن النيل وعن دياره، فإنّ الذكريات باقية فى النفوس التى لم تسعد بذلک الفراق للنيل والحبيب والقوم الكرام. الحنين إلى النيل وذكرياته العطرة هو حنين لذكريات الهوى والغرام والمحبين، ولولا عزم الشاعر على اجتياز المحن والتغلب على الصعاب،

١. بنة العطر: انتشاره وهى معروفة فى الدارجة السودانية.


www.SID.ir

Archive of SID


وإيمانه باسداء الجميل إلى قومه وعشيرته لهاجر من الديار بعدما ساد فيها الذل والهوان والخصومات ولكن تعلقه بكل ما ذكره شوقه وحنينه إليه يقعد به عن مفارقة الديار وهجر أرض النيل وهو الذى تشتاق إليه النفوس فيقول فى قصيدته غربة و ذكرى:

شَوقًا إلى النَّيلِ ذِى البَشَاشَة كَم　　سَـعِدتُ فـى رِيفـه ومُدُنِـه
وكَـم تَحَسُـيتُ مِن سُـلافَتِه　　مكـرم العَـرشِ غَيـر مُمتَهِنه

(الطيب، ١٩٩٢م: ٢١٣)

فالشوق إلى النيل والحنين إليه، شوق إلى المكارم والعلى، وتطلع للشرف والرفعة، وأرضه هى مربع أحاديث الهيام والليالى الملاحة. فالنيل هو الذى شهد أقاصيص الهوى، وأحاديث الغرام وعناق المحبين وتمازج أرواحهم فى مودة وصفاء. فالنفس تحن إليه وتطرب لذكراه، فكم هى واجدة عند المسرة، ومحبة الآخرين.

فالنيل هو أرض الجدود والأهل والقوم الكرام فأرض النيل، هى دار العشيرة ووطن الآباء والقوم الطيبين والذين ضمّهم ترابه منذ أمد بعيد، قبل أيام الفونج، بل قبل أيام حروب العرب بذى قار فى أيام الجاهلية، فحمى النيل هو حمى شعب السودان، وفى قول شاعرنا دلالة على الرباط الوثيق بين النيل وشعبه، فهو استلهم من تاريخه النضر كل معانى. الرفعة والسمو فيقول فى مقطوعته زنجية:

وجاريـةٍ مـا ثَوْبها غَيـرُ يارِقٍ　　وحَقو من الأغْصَانِ والورقِ الخُضر[1]
لها لَونُ كُحلى الحريرِ وقَدْ طَفَتْ　　من الآبَنُوسِ موجتَان على الصَّدر
فَغُضَّ سَوَامَ الطَّرفِ وأعْلَمْ بأنَّها　　عليهـا ثيابٌ مـن طبيعتهـا البِكرِ
هى ابنةُ غابِ النيل كَوثرِكَ الذى　　سَقَى الحِقَبَ الماضِينَ تجرِبَة الدَّهر

(الطيب، ١٩٩٢م: ٥١)

فهو تاريخ حى يجرى بين الناس، يستشف منه الماضى وعبره وتجاربه وهو الذى يضم أرواح الجدود بين شطيه وهم ذوو عقيدة حنيفة، وسرائر طاهرة كريمة، تشربت كتاب الله فكان حاديهم ودليلهم إلى العلياء، ورفض الظلم والاستعباد، فكان سبيلهم هو

١. اليارق: عقد من الخرز. الحقو حزام يشد فوق العجز ودون البطن.


www.SID.ir

Archive of SID

سبيل العزة والسؤدد فما النيل إلاّ كتاب، نقرأ فی صفحاته ذلک الماضی الناصع، وننعم علی شطيه وبين جروفه بالأمن والغبطة.

فالنِّيل رمز الخلود والديمومة وهو سر الوجود والحياة بما يحمله فی جوفه واستعمال الشاعر لكلمة (الماء) لعلها اقتباس من قوله تعالی: ﴿وجعلنا من الماء كل شیء حی﴾ (الأنبياء: ٣٠) فالماء هو عصب الحياة وعمادها وسر كنهها، فهو الذی يهب الإنسان الوجود، ولكن الإنسان يفنی والنيل يبقی خالدا أبد الدهر. وما حياة الإنسان إلا كالسراب الذی يزول ويفنی والنيل باق فی خلوده وديمومته، فيقول:

ينساب ماؤک ويزخر عبابک
يا نِيلُ كَم تَنسَاب
ويزخَرُ العِبَاب
المَاءُ أنتَ إنَّنا سَرَاب

(الطيب، ١٩٩٢م: ١١٢)

فالنيل هو كوثر الدنيا، بل هو الكوثر المجسد علی الثری بين شطآنه جنات ونعيم، وماؤه يسكر من فرط لذته، فالشاعر عندما يقف علی شاطئ النيل، إنَما يقف أمام كوثر ذی سحر خلاب، يلهم المتأمل فيه المعانی المتدفقة، والبيان الرصين، وتسلب لذة مائه عقل كل من ذاقها فهی شهد الكوثر: فماؤه سلسبيل عذب، هو أصل الحياة، ما يفتأ يجود به النيل علی أهله، وذويه، فتنقلب حياتهم نعيماً وعشياً كريماً:

أو كَوثَرُ النِّيلِ سَـقَی ما سَـقَی  فَأصلَـحَ الكَـونَ بِمـا أصلَحا

(الطيب، ١٩٩٢م: ١٢٩)

فالنِّيل حياة وعطاء ونماء وإصلاح. النيل المفدی، وهذه أيضاً من الصفات التی وصف بها النيل، وهی صفة (الفداء) ولا شک أن الذی يفدی لهو عزيز علی النفس، يصعب عليها فراقه، ويهون عندها التضحية فی سبيله.

تَدَفَّـقْ أيهـا النِّيـلُ المُفَدّی  وسَـل بَين الأباطِحِ والهِضاب
عَـزَاء النّفسِ أنت إذا تَغَشـی  رُبَی الآمال يـأسٌ كالضَباب

(الطيب، ١٩٩٢م: ٢٠١)



www.SID.ir

Archive of SID


فهو عزيز مفدى عند النفوس التى تجد عنده الراحة والطمأنينة وهى التى تلوذ به إذا اهتاجها عارض همّ أو غمّ، تجد عنده اللسلوى والعزاء ويبث فيها الأمل والرجاء.

## النتيجة

١. الشعر من أحسن أشكال التعبير الفنى فى تصوير الطبيعة (ظاهرها، سحرها، روعتها...) فعبدالله الطيب يتخذ من محاسن الطبيعة مادة لخياله.

٢. تطور حب الشاعر من حُبّ مادى إلى حب روحى للنِّيل وأعجب به يصور جمال طبيعته ويتمتع بجماله وجلاله ومهابته.

٣. النيل عنده رمز من رموز الشوق والحنين وهو المأوى والدار والمنزل.

٤. الحنين إلى النيل والتشوق إليه هو وفاء له كما هو حنين إلى الحبيب واشتياق له وهو شوق إلى المكارم والعلى.

٥. فالنيل عنده هو كوثر الدنيا وماؤه يسكر من فرط لذته كخمر فماؤه سلسبيل عذب، وهو أصل الحياة.

٦. يتغنى بالنيل الذى يربط بين القطرين (مصر السودان) وينهل منه الشعبان.

٧. النيل عند عبدالله الطيب هو رمز للسودان ورمز للحرية واتخذه مثالا يحتذى فى وحدة الصف والتضامن عبر التاريخ والأيام.

## المصادر والمراجع

*القرآن كريم.*

ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لاتا. *لسان العرب*. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

التنى، فتح الرحمن حسن. ١٩٨٨م. *النيل فى الشعر السودانى*. الخرطوم: الدار السودانية للكتب.

الزبيدى، أبوالفيض محمد بن المرتضى. ١٣٠٦ق. *تاج العروس من جواهر القاموس*. القاهرة: المطبعة الخيرية.

الشامى، صلاح الدين. ١٩١٧م. *دراسات فى النيل*. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.


www.SID.ir

Archive of SID

طالبى، محمد على. ١٣٧٦ش. *النيل فى شعر أبناء النيل*. مجلة زبان وأدب. العدد الثانى.

الطيب، عبدالله. ١٩٩٢م. *أصداء النيل (ديوان)*. الطبعة الخامسة. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.

الطيب، عبدالله. ١٩٩١م. *المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها*. الجلد الثالث. الطبعة الرابعة. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.

..... . لاتا. *بانات رامة (ديوان)*. الخرطرم: الدار السودانية.

قاسم، عون الشريف. ١٩٨٥م. *قاموس اللهجة العامية فى السودان*. القاهرة: المكتب المصرى الحديث.

ممتحن، مهدى. «*المياه ومفاهيمها بين القرآن والأدب الجاهلى*». فصلية التراث الأدبى. ربيع ١٣٨٩ش. العدد٦. صص ١٧٧-١٦٧.



www.SID.ir